الانتخابات العراقيـــــة: دلالات واستحقاقـــات

باقر جاسم محمد

مثلت الانتخابات العراقية لحظة تحول تاريخية حاسمة في مسيرة العراق الناهض من رماد الحروب والكوارث التي خلفها نظام صدام وما أعقبه من انهيار شامل للدولة وأجهزتها. وهذا يعني أن لحظة البناء والإنشاء والتكوين قد بدأت عمليا. فالشعب الذي خرج بالملايين ليؤدي واجبه الوطني قد حسم كثيرا من الجدل السياسي العقيم الذي اتخذته قوى معينة وسيلة لتعويق عملية التحول الى الإرادة الشعبية عبر الانتخابات. ومن الواضح أن أي تأخير في تلك العملية كان سيزيد من حجم الكوارث التي كان الشعب يرزح تحتها. إن تحويل الانتخابات الى عرس حقيقي قد دعمته حقيقة أن مجرد الخروج الى مراكز التصويت هو موقف ورسالة بصرف النظر عما سيختاره المقترع أو حتى إذا لم يختر أي طرف ورمى في صندوق الاقتراع بطاقة بيضاء. ولقد زاد الإرهابيون من عمق دلالات هذه الانتخابات حين قاموا بالآتي:

١-هددوا سلفا من يشارك فيها بالقتل.

٢-فجروا فعلا، أو حاولوا تفجير بعض مراكز الاقتراع؛ كما سرقوا بعض أوراق الاقتراع وأحرقوها.

٣-قاموا بالهجوم فعليا على بعض المراكز الانتخابية صبيحة يوم الانتخابات.

لكن كل هذه الأعمال التي تفصح أخلاق ومناهج ومواقف من اقترفوها فأن الشعب قد تحدى كل ذلك وخرج ليبعث رسائل الى شتى الأطراف المعنية بما يدور في العراق الآن. وقد وجه العراقيون الأبطال تلك الرسائل الى:

١- الجهات التي دعمت وشاركت بالانتخابات وهي التي يتوقع لها الفوز لتقول لها هاكم ما أردتم من تفويض شعبي. ولتعملوا على تحقيق ما وعدتم به من تدعيم الوحدة الوطنية وإنهاء الاحتلال وضمان الأمن والقضاء على الإرهاب وبناء ما هدمته حروب الطاغية والقضاء على الفساد المستشري وتأمين فرص العمل وإعادة الخدمات الأساسية فضلا عن المهمة الأساسية للجمعية المنتخبة ألا وهي كتابة مسودة الدستور الدائم وطرحه إلى الاستفتاء العام. فبدون عملكم وجهدكم الجهيد لن يتم ذلك. ولكن إياكم والاستئثار بالسلطة.

٢-الجهات التي طالبت بتأجيل الانتخابات لتقول لها رسالة مهمة وهي: إذا كنا من أبناء شعبكم كما تقولون وأن لا فرق لديكم بين سكان الجنوب والوسط والشمال فنحن نقول لكم بصراحة أن اجتهادكم هذا لم يكن موفقا فأبناء شعبكم في الشمال والجنوب والوسط يرون أن أي تأجيل للانتخابات سيزيد من حجم الكارثة الوطنية. وأما من قاطع فليس كلهم غير راغبين ونحن نأمل منكم أن تعملوا مع الجميع من أجل ضمان إسهام الجميع وترصين الإرادة والوحدة الوطنية من أجل إنهاء الاحتلال والقضاء على الإرهاب وبناء ما هدمته حروب الطاغية والقضاء على الفساد المستشري وتأمين فرص العمل وإعادة الخدمات الأساسية فضلا عن كتابة مسودة الدستور الدائم وطرحه للاستفتاء العام. فبدون إسهامكم الأصيل لن يتم ذلك.

٣- الجهات التي قاطعت الانتخابات لتقول لها كذلك إننا نحن أبناء شعبكم نريدكم معنا في بناء العراق الجديد ونربأ بأنفسنا وبكم من أن تظل القطيعة قائمة بيننا أو أن تطمع جهة في جعلنا نقتتل إذن فتعالوا الى كلمة سواء بيننا من أجل ترصين وتدعيم إرادة الوحدة الوطنية وإنهاء الاحتلال والقضاء على الإرهاب وبناء ما هدمته حروب الطاغية والقضاء على الفساد المستشري وتأمين فرص العمل وإعادة الخدمات الأساسية فضلا عن كتابة مسودة الدستور الدائم وطرحه إلى الاستفتاء العام. فبدون إسهامكم الأصيل لن يتم ذلك.

٤-الجهات الإرهابية التي سعت جاهدة لثني إرادة شعبنا عن خياراته الوطنية وجعلت من نفسها، بالباطل، قيمة على الشعب العراقي لتقول لهم: كفاكم استهتارا بقيم السماء والأرض وكفاكم قتلا وتدميرا للنفس البشرية ولكل ما هونبيل فيها حين زينتم وتزينون قتل الناس الأبرياء لبعض ضعاف النفوس، فشعبنا لن يخضع إلا لخالقه جل وعلا.

٥-بعض الوجوه السياسية الكالحة التي امتهنت الظهور على الفضائيات العربية لتبيع بضاعة كاسدة من السموم المغلفة ببعض العبارات الطنانة لتقول لهم: لقد خاب سعيكم وظهر للقاصي والداني فساد أقوالكم وبعدها عن حقيقة شعبنا وقواه الوطنية فإذا كان ما ذهبتم إليه فهما سقيما لحقائق الأمور فأن الشعب العراقي يمنحكم الفرصة لتصححوا أخطاءكم والتحول الى قول الكلمة الطيبة التي هي صدقة. أما إذا كانوا من المدفوع لهم أومن أزلام صدام فتقول الرسالة: إذا لم تستح فأفعل ما شئت.

إن المطالب الشعبية المذكورة آنفا هي القاسم المشترك الأعظم للشعب العراقي وهي تمثل تحديات عظيمة الجسامة لن تستطيع جهة واحدة إنجازها من دون جهود كل القوى السياسية المخلصة للعراق ولوحدة أرضه وشعبه ولذلك فنحن ندعو الجميع للارتقاء الى مستوى التحديات التي تواجه البلاد في هذه المرحلة العصيبة. وإذا كان شعبنا قد قال كلمته بفصاحة وصدق وألقى الحجة على الجميع، فأنه ينتظر ليرى ويحكم على الأفعال لا الأقوال.

الإصبـــــع العـــــراقي: لله وللحريـــــة

د. شاكر النابلسي

-١-

الإصبع العراقي ارتفع بالأمس لله وللحرية فقط، ليخرق عين الشمس.

لم يكن إصبعاً على زناد بندقية الارهاب، وليس إصبعاً على زناد مسدس كاتم للصوت لقتل المعارضة، ولم يكن إصبعاً على فتيل قنبلة لتفجير مدرسة أو مستشفى أو مركز للشرطة.

ليس إصبعاً يقول للحاكم لا ولياً إلا أنت على هذه الأرض، ويارب الأرباب أنت حامينا، ومصدر قوتنا، وعزتنا، ومجدنا.

-٢-

قام العراقيون بالتقاط الصور التذكارية لهم ولعائلاتهم، وهم يرفعون إصبعهم الذي يشهد أن لا ولاء إلا للوطن، وأن الحرية حبيبة الله.

الإصبع العراقي المضمّخ بعطر الديمقراطية البنفسجي، هو المرفوع اليوم وبالأمس في وجه الديكتاتورية العربية وليس وفي وجه الديكتاتورية العراقية المنهارة فقط.

أصابع المسنات العراقيات ، مهدية، وفطوم، وزينب، وخديجة، وأم علي، وأم حسين ، وأم محمد وكلهن في الثمانين من أعمارهن وما فوق، واللائي جئن محمولات على ظهور أبنائهن وأحفادهن، كانت مرفوعة إلى السماء وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن الحرية حبيبة الله.

-٣-

الإصبع العراقي المرفوع اليوم والذي غرزه العراقيون في عيون الارهابيين، وفقأوا به هذه العيون الملأى بقيء الِرمد التكفيري، كان هو الرد المفحم والشجاع والجريء والقاطع المانع على الغزو الارهابي والاحتلال الأصولي الديني والقومي للعراق.

الإصبع العراقي قال للغزاة من المحتلين الارهابيين الدينيين والقوميين:

- اخرجوا من العراق قبل أن تحرقكم نار الحرية والديمقراطية التي اشتعلت في كل أنحاء العراق والتي رقص العراقيون حولها فرحاً وحبوراً بالأمس.

- اخرجوا من العراق صاغرين، وأنتم الأذلون إن كنتم لا تعلمون.

-٤-

الإصبع العراقي المرفوع الآن، والمضمخ بحبر الحرية الذي سيكتب به الدستور العراقي والمستقبل العراقي هو إصبع التوحيد نفسه الذي رفعه العرب منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، عندما جاء الإسلام محرراً للعبيد ،وقاهراً للطغاة، ومبشراً بالحرية .

ففي بدء الدعوة الإسلامية رفع العرب إصبع التوحيد والتكبير هذا مضمخاً بماء زمزم وكان لله وللحرية.

واليوم يرفع العراقيون هذا الإصبع مرة ثانية، وأول مرة، لا طاعة لحاكم، ولا استجارة من ظلم، ولا توسلاً لغني، ولا رجاء من سام، ولا خوفاً من طاغية، ولا خشية من ديكتاتور، ولكن لله وللحرية فقط.

العراقيون أعادوا يوم الثلاثين من كانون الأول ثانية، نشر رسالة الإسلام الفطري النظيف الأول سلمياً ، وبعيداً عن الفقهاء والبلغاء والخلفاء والأوصياء، ومن خلال صناديق الاقتراع، ووضعوا كلمتهم في فم هذه الصناديق، صناديق الاقتراع لا صناديق الاتباع التي كان يُساق لها قطعان الماعز في الماضي العراقي وفي الحاضر العربي حتى الآن.

-٥-

ما أصعب كل هذا على العرب الآن الذين لا يرفعون إصبعهم إلا شكراً لأولياء النعم.

ما أصعب ذلك على العرب حيث لم يقف منهم ملك أو رئيس أو وزير أو خفير أو فقيه أو إمام أو مؤذن ليقول للعراقيين:

- مبارك، وتهانينا، وعيد مبارك ، وإلى الأمام.

ألا يخجل العرب من أنفسهم من هذا الموقف المشين؟

ألا يخجل العرب وهم يرون الرئيس بوش أول من يقف وبعد دقائق من قفل صناديق الاقتراع يهنيء الشعب العراقي بالانتخابات، ويدفعه إلى مزيد من الخطوات نحو الحرية والديمقراطية بينما القادة والمسؤولون العرب نائمون في العسل الأسود، يمضغون الأيام، ويجترون الشعارات البالية، وينتظرون الغد المملوء بالأحلام الكاذبة والأوهام الناكتة التي يفبركها لهم فقهاء الفتاوى من القبور والقصور.

ألا يخجل العرب من أنفسهم وهم يقولون إن "اصرار العدو الاميركي على إجراء الانتخابات في العراق على هواه محاولاً الظهور بمظهر صاحب الكلمة النهائية في مصير العراق، ليؤكد للعرب أجمعين ان الاحتلال هو الذي يقرر كل شيء هناك، وليكشف عن جوهر "الديمقراطية" بالمفهوم الاميركي أي الديمقراطية بالاستعمار". كما قال الكاتب الفلسطيني عادل سمارة في (موقع "كنعان" على الانترنت ٣/ ٢٠٠٥/٢).

ألا يخجل المثقفون العرب من أنفسهم وهم يصفون الانتخابات العراقية بأنها (تحرير مواطنين من دون وطن) كما قال العدو اللدود للعراق الكاتب الأصولي وأحد قيادي الإخوان المسلمين فهمي هويدي في ("الشرق الأوسط"، ٢٠٠٥/٢/٢).

فما الوطن، وما المواطن؟

هل الوطن عبارة عن أرض خالية من دون مواطنين؟

وهل هناك أوطان من دون مواطنين؟

ما هذا التخريف، وما هذا التجديف؟

-٦-

لقد جُنَّ جنون العرب حكاماً ومسؤولين ومثقفين من الطوفان الديمقراطي العظيم الذي غمر العراق من شماليه إلى جنوبيه ومن شرقيه إلى غربيه، حتى أن بعض أهل الفلوجة ممن لم يتعمدوا بماء هذا الطوفان، ذهبوا صباح الاثنين للاقتراع بعد أن انفض العرس الديمقراطي مساء الأحد الأبيض.

جُنَّ جنون العرب وهم يرون الشعب الديمقراطي يتعطر بحبر الديمقراطية، ومنهم من قال إنه العسل الديمقراطي، ويتعمد بالطوفان الديمقراطي عماد المسيح في نهر الأردن، بينما العرب يغرقون في مستنقعات الديكتاتورية وأنظمة الحكم التي يبدأها الحاكم من القصر ولا ينتهي بها إلا إلى القبر، ويقول إن دخول حمام السلطان أصعب من الخروج منه، مثله مثل (الكندرة) الضيقة على القدم الكبيرة.

-٧-

ألا يخجل المثقفون العرب من أنفسهم وهم يصفون الانتخابات العراقية بأنها "جرت في ظل احتلال عسكري أجنبي، ونسبة المشاركة فيها انما جرى احتسابها على قاعدة الناخبين المسجلين في السجلات الحكومية المنظمة لهذه الغاية، وهي سجلات مشكوك في صدقيتها كما هو مشكوك في صدقية النسبة المئوية للمشاركة المستندة اليها، ناهيك عن الشك في نزاهة الإدارة التي اشرفت عليها" كما قال القيادي البعثي اللبناني عصام نعمان ("القدس العربي"، ٢٠٠٥/٢/٢).

ألا يخجل المثقفون العرب من أنفسهم وهم يصفون الانتخابات العراقية بانعدام شروط الحرية فيها، وبأنها "لا يمكن أن تكون نموذجاً للإصلاح الديمقراطي لا في العراق ولا في المشرق العربي. وأن هذه الانتخابات جرت في إطار ترسيخ النزعات الطائفية. لهذا السبب لا نستطيع قراءة الوقائع ولا استيعاب المفاهيم التي صنعتها الانتخابات التي تمت في إطار تنعدم فيه شروط الحرية التي نفترض أنها الضامن الأكبر لكل فعل سياسي ديمقراطي" كما قال المفكر المغربي كمال عبد اللطيف ("الشرق الأوسط"، ٢٠٠٥/٢/٣).

ألا يخجل المثقفون العرب من أنفسهم وهم يصفون الانتخابات العراقية بأنها (مارينز الديمقراطية) وبأن العراق أصبح "قاعدة من قواعد تصنيع الانتخابات على الطريقة الأمريكية" كما قال الكاتب المصري صلاح الدين حافظ ("الدستور" الأردنية، ٢٠٠٥/٢/٣).

ونحن نقول وبكل شجاعة عاشت عاشت عاشت "ديمقراطية المارينز" على هذا النحو الذي جرى في العراق، وهي أمل عزيز وغالٍ (تكاليفها حتى الآن ٢٠٠ مليار دولار، وآلاف الشهداء من مسيحيين ومسلمين وعرب وعجم) لكل عربي بدلاً من "ديمقراطية قطعان الماعز" ذات التسعات الذهبية ٩٩٩و٩٩ الخمس.

-٨-

قال عراقي في الشتات إن الإصبع العراقي المرفوع اليوم والمضمخ بحبر الحرية وعطر الديمقراطية هو الخازوق الذي ستجلس عليه في الأيام القادمة كل الديكتاتوريات العربية، فكان جوابي على ذلك أن العراقيين يثأرون اليوم للخوازيق التي أشبعتهم اياها الديكتاتورية العراقية طوال السنوات الطوال الماضية، وقدر الشعوب دائماً أن تثأر لحريتها المسلوبة. وهذا يوم الثأر العراقي.

فما أرقى هذا الثأر، وما أسماه، وما أجل مقامه!.

لم يكن رد الشعب العراقي على سنوات القهر والظلم والطغيان بالقتل والسحل، وانما بالسعي إلى صناديق الاقتراع فجر الثلاثين من كانون الثاني، لكي يثأروا لأنفسهم ولأطفالهم ولأحفادهم ولمستقبلهم من الديكتاتورية العاتية برفع هذا الإصبع المضمخ بحبر الحرية وعطر الديمقراطية.

لقد تمنى معظم العراقيين الذين شاهدناهم يرقصون ويدبكون على شاشات الفضائيات أن لا يزول هذا اللون البنفسجي الجميل من أصابعهم ليظل يذكرهم، ويذكر العرب الآخرين بهذا اليوم العظيم.

-٩-

ما أغلى الحرية، وما أعظم تضحياتها؟

أنظروا ماذا قدم العراقيون من دماء وشهداء من أجل اقامة هذا العرس الكبير .. العريس الوطن، والعروس الديمقراطية؟

أنظروا ما الذي قدمته القوى الكبرى الحرة في العالم من دعم وتأييد وتمجيد للديمقراطية العراقية؟

اسألوا أنفسكم :

- من الذي يجبر العراقيين على تحدي الارهابيين ومواجهة الموت والمجازفة بالحياة من أجل أن يصلوا إلى صناديق الاقتراع؟

- من الذي يجبر العراقيين في المنافي والشتات على تعطيل أعمالهم، والسفر مئات الأميال لكي يقترعوا ويرفعوا إصبع شهادة "أن لا ولاء إلا للوطن، وأن الحرية حبيبة الله"؟

- من الذي يجبر المرأة المسنة المُعاقة لكي يحملها ابنها أو حفيدها بين يديه أو على ظهره، ويأتي بها إلى مراكز الاقتراع لكي تقترع، وترفع إصبعها في وجه الشمس، علامة النصر المبين ؟